الدكتور طه حسين عن سر اختيار تيمور لهذا العنوان.

ووقف «محمد عبدالحليم عبدالله» مشجعاً نفسه مصمماً على أن يسلم على أستاذه تيمور عقب الانتهاء من الحفل وسلم فعلاً سلام شاب من الشباب الذين حضروا.. لكنه لم يكن سلاماً عادياً وانتهى.. كلا بل كان حلماً «لمحمد عبدالحليم عبدالله» وتحقق.

مرت الأيام في نشوة غير عادية.. وبجهد غير عادي.. وتمني لا يفارقه.. وحلم أكبر حينما كتب له القدر أن يكون كاتب قصة.. ومحمود تيمور بطل من أبطال عالمه.. وصاحبه في عوالم داخله لا تغرب عنه أيضاً.. فهو مثله الأعلى.

اجتهد «محمد عبدالحليم عبدالله» وسجل.. وواصل العمل تلو الآخر.. والمعالجة بعد الأخرى.. وكتب له القدر أن يكون ضمن كتاب القصة.. ومن الذي ضمن الشهود على ذلك هو «محمود تيمور» والذي كان يلتقي به بين الحين والآخر في مناسبات كثيرة في «نادي القصة».. وأماكن أخرى.. فكان كل مرة يسلم عليه في استحياء ويمضي..

وفي يوم.. لم يصدقه «محمد عبدالحليم عبدالله» حينما وصلته بطاقة دعوة تدعوه لمحل الحلواني «الجمال» وصاحب الدعوة هو: «محمود تيمور».

لم يصدق «محمد عبدالحليم عبدالله» نفسه يوم الدعوة حينما وجد عدداً من الشبان القصاصين والأدباء يجاور بعضهم البعض على بساط واحد يؤمه أستاذ القصة والتواضع كما ذكر «محمد عبدالحليم عبدالله» منهم: «عبد الحميد السحار - نجيب محفوظ - إبراهيم الوردني - يوسف جوهر - صلاح ذهني.. و.. و..». كان هذا حلماً كبيراً بالنسبة له لغاية كانت في نفسه كما كانت تحلم أمه له أحلاماً لغايات كثيرة.

وعلى استحياء كبير جلس «محمد عبدالحليم عبدالله» ليسمع.. يراقب.. يسجل.. يحاور في استحياء.. واستمتاع وأدب جم لحديث الأستاذ «تيمور» في الأدب والفن.. كما استمتع بحوارات الآخرين فكان «تيمور» يحاورهم كالأب.. ويجادلهم بصدر رحب.. رحب.. يسع كل أدباء مصر على اتساع ساحتها الأدبية كلها. ومن مقتطفات من هذه الجلسة عبارات وتوصيات وردود خاصة للتوضيح بين القوانين والقصة:

- هناك فرق بين القوانين والقصة.. بل هناك فرق بين القانون نفسه.. وروح القانوني.. فروح القانون يعرفها القاضي فقط والذكي فقط وحده.. وروح الإبداع في الفن والأدب يعبر عنها الكاتب المبدع فقط بطريقة تشبه تطبيق القاضي البارع لروح القانون.. ويكمل تيمور برد على سؤال تقريباً:

- حتماً سيعبر الكاتب عن مجتمعه لأن القضية بسيطة أشبه بمعادلة رياضية ذات نتيجة حتمية «كاتب.. ومجتمع.. وتعبير» ومن هؤلاء الثلاثة يخرج العمل الأدبي مطابقاً للمجتمع حاملاً سمات الكاتب.. ولا يمكن أن يتخلف العمل الأدبي إلا إذا انعدم الكاتب.

- «منذ ذلك التاريخ زالت الكلفة بيني وبين هذا الأستاذ.. وزالت أكثر عندما التقينا بنادي القصة» وتقدمت أكثر عندما عملت له مساعداً وهو رئيس تحرير مجلة القصة.. وكلما اقتربت منه رأيت فيه:

فطرة صافية تؤمن بالرحمة والحب والسلام.. إذا أحرجته تبسم.. أنيق دائماً فكأنما مظهره الخارجي صورة لنفسه الأنيقة.. لم تجعله سن السبعين.. قليل الصبر ولا سريع الملل.. رأيت ذلك بنفسي في رحلة قطعتها معه بالسيارة إلى مدينة المنصورة لحضور مهرجان أدبي..

العقـــاد:

كان اختيار «محمد عبدالحليم عبدالله» لمبدعيه الذين تجمعه بهم.. مقالاً.. كتاباً.. سيرة.. جلسة.. ندوة.. صالوناً.. أو موقفاً.. اختياراً ناضجاً واكتشافاً لأشياء لم يعرفها أو يعرف بعضها فعليه أن يغوص داخل منجمها؛ ليعرف حقيقة معدنها لينهل منه ما استطاع وليضيفه لعالمه الخاص.

أصرّ أن يتحاور مع مؤلف «سارة» وأن يقف على أبعاد هذا العملاق الإبداعية والترجمة لقياسها للتعرف إلى مدى وصل إليها هذا العملاق وليقف على متعطفات كوامنه وما هي ملامح عالمه الخاص وكيف يتعامل مع هذا العالم؟ هذا التعارف أو اللقاء.. لا للشهرة أو للضربة الصحفية لمجلة القصة أو للسبق الصحفي «إذا جاز هذا التعبير» أو لأشياء أخرى.. فإن «محمد عبدالحليم عبدالله» دائم الفحص والنبش والتفحص.. والمقارنة أيضاً لدرجة أنه.. في يوم اللقاء هذا وأثناء الصعود للسلم كان يعد درجات السلم التي يصعدها مبدعنا يومياً لدرجة أنه وجد نفسه قبل أن يدق جرس الباب يقول «لنفسه في نفسه» بتلقائية «خمس وثلاثون درجة» ويكرر ذلك على إيقاع تحرك إبهامه لدق الجرس والابتسامة التي تنتهي بحديثه لنفس في نفسه «وسبعون كتاباً» كل درجة من درجات هذا السلم الرخامي القديم الذي طالما صعده العقاد يقابلها كتابان من تأليفه.. كل ميسور لما خلق ذلك قبل أن يدق جرس الباب.

ودق الجرس وكانت المفاجأة بالمداعبة فور دخوله على «العقاد» وهذا ما جعل «محمد عبدالحليم عبدالله» بسرعة خاطفة يستحضر ويعيد ويستعرض ما قرأه عن العقاد وللعقاد.. ولقد قصر العقاد له الطريق في الدخول للموضوع المطلوب.. وإني أتساءل هنا..

- هل هذه فراسة المضيف أو الضيف؟

- ماذا كان شعور الضيف بالمفاجأة عند قوله: وإحساس بالبرد يا عبدالحليم؟.. وبالطو؟.. إنها الشيخوخة.. ومن دخل العملاق المباشر بالمداعبة على حد الاستنتاج.. إن جاز هذا التعبير.. انتاب «محمد عبدالحليم عبدالله» سنة من البحث عن الإجابة أو المداعبة المقابلة فجنح إلى المجاملة قائلاً:

- هل تظنون أن كل الناس لا يشيخون مثلكم.. إن العباقرة لا يشيخون..

أسرع العقاد لرده إلى صوابه ولقياس درجة حبه له قائلاً:

- ألا ترى الشيخوخة في كل هذا؟!

وعلى الفور تمالك «محمد عبدالحليم» نفسه وواصل الحوار.. وليبدأ ينبش.. ويدخل المنجم.. وليعرف معادنه.. وليستفد منها ما أراد فقال:

- إنني لم أشهد شيخوخة على عبقري قط.. إن الذين يمنحون متعة النفس والوجدان والعقل لا يموتون.. فكيف يشيخون؟

كانت هذه العبارة بمثابة انطلاقة لسيل من الأسئلة المختلفة: في الفكر.. والفن.. والأدب.. من الذين كانوا يجالسونه بعددهم الكبير وبدأ مبدعنا «محمد عبدالحليم عبدالله» يدخل سراديب عملاقنا ليأخذ ما يشتهي مما يجده فوجد:

أن العقاد لا يحب.. البوح.. فهو بطبيعته ليس ميالاً للاعتراف.. أو التصريف.. ولم تخل حياته من الحب وقد أكد ذلك محمد عبدالحليم عبدالله بسؤاله لضيفه:

- لو فرضنا أن حياتكم خلت من الحب - وهذا في رأيي محال - فهل يأنف كاتب «العبقريات» من كتابة قصة حب؟

أجاب العقاد في تودد:

- لست آنف على هذا على الإطلاق.. بل إن موضوعات الحب في القصة (الحديث عن قصة سارة) موضوعات مشرفة.

وهنا انطلق «العقاد» المحب.. العاشق.. الذي يستحضر ماضٍ يخطره وفي غير حرج وتحفظ وتأشير إلى بعضه من حديثه لمبدعنا محمد عبدالحليم عبدالله بوجود الآخرين أن الحب في رأيي هو: «امتزاج بين شخصين.. وكل التقصير أن تنصرف كلمة «حب» إلى ما يكون بين الرجل والمرأة فقط».

وقد أكد العقاد عن سبب وجوده فقال: لكي يوجد الحب لا بد أن تكون هناك مزية شخصية للإنسان الذي نحبه، وإلا فما الذي يجعلنا نميز واحدة عن واحدة؟ وهنا نجد «محمد عبدالحليم عبدالله» في صمت متوهج يعيش بكل حواسه وكوامنه.. وتوتر خشية أن يقاطعه أحد حتى تستكمل هذه القضية لعملاق كهذا..

استطرد العقاد يواصل في الحب.. ومبدعنا «محمد عبدالحليم» يقف على نبضات قلبه يتفاعل مع كل حرف يسمعه من العقاد ويخشى مقاطعته من أحد الجالسين:

الحب في كل سن أساسه التكافؤ.. والشاب والشابة في حبهما يشعران أنهما يمنحان لا يأخذان.. يشعران أن كلاً منهما يضيف إلى الآخر شيئاً.. فحب الشاب عملية «جمع» لا عملية كيماوية فحسب، لكن مع تقدم السن لا بد أن يكون هناك نوع من الملامح الشخصية.. يقوم بعملية التكميل.. تقدم السن يتطلب الزيادة.. يتطلب التكملة.. التكملة.. التكملة..

وحب الشيوخ نوع من التكميل.. وفي «سارة» أنواع من الشخصيات.

ولوعي «محمد عبدالحليم عبدالله» وفطنته.. وفراسته.. وفطرته النقية.. ولتوهجه لما يدور فلم يفته أن يجعل العقاد يعترف بحبه فيكون سؤاله:

- حتى ولو في قلب عبقري؟

فأجاب العقاد على الفور:

حتى ولو في قلب عبقري.

ملحوظة: ما ذكر من السؤال كان تكملة لسؤال سابق وهو: ألا يكون حبان في قلب واحد؟

ولم يقف «محمد عبدالحليم عبدالله» على موقف العقاد من الحب فحسب بل: علم.. وتعلم ووقف بثقة ومعرفة على أن علاقة الأدب بالشعب ضرورية وهامة جداً.. جداً.. جداً ولا يرقى شعب ولا يرتقي إلا بإبداعات المبدعين.. فمجالات الإبداع ونتاجه هي التي تصقل حسّ.. وسلوك.. وفكر.. وأحلام الشعب التي يريد تحقيقها.. حيث أن المبدع الحقيقي هو ابن بيئته.. وأن ما يبدعه هو من مخزون ما اختزن في بوتقته ومن أين؟ من بيئته.. فهذا الإبداع لا بد وأن يكون بمثابة التطهير.. والتعليم.. والتحرك إلى الأرقى (القاص - الروائي - المسرحي - الرسام - النحات - البناء - المهندس - الطبيب - الصيدلي - البستاني... و...

و . . .) كل هؤلاء طالما أن هناك علاقة ما راقية داخل كل منهم . . نفسه - هذا السمو، لا بد وأن يكون علاقة راقية بين المبدع والشعب.

فالإبداع حركة . . والحركة تقدم . . والتقدم إبداع . . والإبداع حضارة . . ومن هنا تقاس الأمم بإبداعها وحضاراتها . . وهذا ما كان يشغل عبدالحليم عبدالله دائماً في رمز قريته «كفر بولين» ولذلك حاول في لقائه نبش هذا الموضوع وكان السؤال «للعقاد»:

- يقول بعضهم عن «العبقريات» التي ألفتموها أنها أدب مترفع يتنافى مع الدعوة أن يكون الأدب في خدمة الشعب، فما رأيكم في هذا؟

لا يخدم الشعب من يفرض فيه الجهل الأبدي . . ويفترض أنه سيظل جاهلاً بعد أن يكتب له . . كفى خدمة للشعب أن تقدم له المثل الذي إذا أدركه ارتقى علماً وثقافة.

هنا يفصح أكثر عن هويته المذهبية الأدبية بكل صراحة ووضوح وبأدب راق لشعب يرقى فيقول: «رأيت بعد أن قرأت نقد الناقدين أن الذين وقفوا من قديم الزمان إلى أن يضعوا أيديهم على أدق خلجات النفس إنما كتبوا عن تجاربهم ونشروا على الناس صحائف قلوبهم . . فلا خير إذن من أن تكتب قصة نفسك».

إذا كان كتب الرواية لمحنته فهو أيضاً يصرح هنا بالحب أيضاً لكن تشم فيه رأي العقاد أيضاً وتأثره به وأنه جزء من عالمه فيقول:

- «أنني أروي لك هذه القصة وكأنه ليس بيني وبينها الآن علاقة وكأنها قصة غير لأن السنوات التي طرحتها وراء ظهري أطفأت حدة إحساسي وغيضت ينبوع دموعي الذي كان يسيل لأتفه الأسباب . . نحن في شبابنا نتفاعل مع الحياة تفاعلاً سريعاً نرسل فيها ونستقبل بطبيعة السن كأننا جهاز لاسلكي دقيق . . أما الشيخوخة فكل ما تفعله فإنما هو مغترف من ومضات الشباب ومن ذكرياته».

وهنا أيضاً وضح الحب بطريقته متأثراً أيضاً برأي العقاد ولا بد أن تشم رائحته بعمق واضح تفرق بين «الحب والتأثر في مرحلة الشباب وطابق على نفسه هو . . وبين الحب في مرحلة الشيخوخة حتى دخل مباشرة بعد قليل من صـ (1) السطر الثالث بدخول حبيبته «أميرة» عليه وهو في دار المجلة وقد ذكرنا هذا الموقف سابقاً» وعليك أن تعرف تأثر «محمد عبدالحليم» بالعقاد في قضايا كثيرة.

الأدب والشعب: أما عن قضية الأدب والشعب فقد قطعها العقاد وعاشها «محمد عبدالحليم عبدالله» فرأى العقاد: «إن لم يكن الأدب للشعب لمن يكون؟ ولمن يكتب الأديب؟ فلا بد أن يكون الأدب للشعب ومن الشعب ليرقى الشعب إلى أرقى السلوك والفكر وتحقيق الأحلام . . ذلك كان واضحاً من خلال الحوار الذي دار بين «العقاد» و«محمد عبدالحليم عبدالله» *1964* مارس لمجلة «القصة».

لم يكن ذلك جديداً «لمحمد عبدالحليم عبدالله» وإنما زاده رؤاً ووضوحاً وتأكيداً . . فقد كان ابن «كفر بولين» وما زال ابنها . . القرية المصرية المتواضعة التي أنجبته . . فهو لم يخرج عن قضاياها . . وعن الالتحام بأهلها وشعبها . . فلم تخل كتاباته أبداً عن وجود القرية ورائحتها وعبقها . . فتراه في قصة «أسطورة من كتاب الحب» بمجموعته بنفس العنوان . . نجد قريته واضحة المعالم حتى في الحديث عن المواسم للحصاد وعن الأفدنة وعن جودة الأرض بها والفارق بينهما وبين أهلها أيضاً فنجد الشيخ المسن الذي انتابته نوبة حمى أو ما

جعله يذهب لطبيب الوحدة أو المجمع بسبب «عبدالواحد عبده» وفدانه الذي أنجب تسعة قناطير من القطن وفدان أربعة قناطير فقط، ونساء أولاد عبدالواحد تنجب أولاد ودجاجه بيض وهكذا حتى في أبسط وأدق الأمور فهي تعيش داخله دائماً ولن تتركه لغيرها يبدع وينجب ما يبعد عنها.

في قصة «ليلة شتوية» تعيش في قرية بكل عبلها وعبقها بتقسيمها الحقيقي القديم وليس الآن!!.. وكيف يتم الفرح بمراسمه.. ويدخل بك لحجرة النوم أو « القاعة» والمرأة الجميلة أو العروس الجميلة وماذا يبقى بها من بقايا العرس من حناء ورائحة اللبان.. وكذلك الدهليز الذي بين الحجرات وكيف يكون هذا البيت الريفي وقت الشتاء وخاصة يوم الخميس الذي هو عند «كفر بولين» يسمونه موسم الأسبوع خفيه، لا بد أن يكون العشاء لحماً أو سمكاً أو فطيراً.. أو خبزاً ليناً وسمكاً وليست كفر بولين وحدها بل كل القرى حتى وقتنا هذا مع التغيير من الأنواع أو وسيلة التدفئة أو التسلية أو حتى المسامرة!!!

حتى وأدوات الطبخ والوسائل الأخرى تغيرت تماماً.. الفرن والكوانين والبوشة والطاجن والكراز واللقانة والعرصة الطين وكانون الشاى والمفرغة الخشب وكرسى الشاى الخشب المزركش، والعدى الغلاى والبراد والأكواب الصاج.. والشاى ثلاثة أدوار وقمع السكر.. واللمبة الشيخ علي والجلوب والشمس.. وقش الأرز.. وعيدان الحطب والحصير.. وقارب الصيد في ترعة الخطاطبة والشبكة.. الا يكفي كل هذا لعبدالحليم عبدالله أن يكون ابن كفر بولين القرية المتواضعة وأن يكون منها وأن يكون من شعبها وأن يكتب منها ولها؟

يقول كبير السن بالقرية كنت معه بكوم حماده بالموقف لركوب سيارة لكفر بولين فوجئت «بأبو اليزيد» مسرعا نحوه مصافحا قائلا: حاضر يا سعادة البيه رايح نسمعك.. ونادى بأعلى صوته «كفر بولين» القناطر.. كفر بولين بمقابل عشرة قروش كل مرة.

إسماعيل مظهر

هؤلاء الذين هم عالم «محمد عبدالحليم عبدالله» منهم صنع: مزاجه.. حياته.. سلوكه.. حبه.. التغلب على محنه.. انتصاراته.. إبداعاته.. دفاعاته.. أحلامه.. مستقبلياته.. رؤاه.. قضاياه بكل أبعاده.. عائلته الإبداعية.. قريته كفر بولين.

لم ينس اليوم من صيف يونيه *1937* بالتحديد كان حاراً جداً الذي وصلت فيه رسالة من أحد أقاربه بالقاهرة... ربما أن يكون عمه بن عمه الشيخ عبدالمحسن عبدالله «أحد أولاده الثلاثة» أو ابن عمه آخر يعمل بجريدة «العلم» لسان حال الحزب الوطني. في هذه الرسالة يطلب منه الحضور إلى القاهرة فوراً لمقابلة شخصية هامة.. ولم يذكر المفاجأة.. لكن «محمد عبدالحليم عبدالله» بفراسته أحس أنها بخصوص عمل.. لم يعط اهتماماً لهذه الرسالة.. لكنه بعد يومين من الرسالة جاءته فكرة ذهابه إلى القاهرة والعمل بها.. هذا أفضل.. سافر بعد يومين من الرسالة جاءته فكرة ذهابه إلى القاهرة في نفس الشهر يونيه لعام *1937* أول صيف لنجاحه في مدرسة دار العلوم.. في يمينه شهادة.. وفي يساره قلب لا أمل فيه.. ذلك على حد قوله في الوجه الآخر.. أفكار تنتابه.. أوهام تحيط به.. أحلام يقظة تداعبه.. خوف من بين الحين والآخر وهو في طريقه.. يصحبه قريبه بعد أن عدل رباط عنقه وتأكد من أن جاكتته مزررة.. يسيران على أرض صالة من الخشب الجيد الصنع والنوع والألوان التي تتفق والأبواب

المحلاة جميعها بالمرايا الكبيرة التي تعكس كل شيء حتى «اضطرابه» على حد تعبيره.

حجرة الاستقبال داخل حجرة واسعة جداً جداً.. هذه الحجرة بمثابة حجرة الاستقبال في دوار عائلة الطحان أو عائلة الشيخ.. هذه الحجرة من الدوار تمثل المكان الواسع المفروش بكل فاخر لعلية القوم أما متوسطي الحالي فهي المندرة التي عليها تستقبل الضيوف أو فيها تقام المناسبات المختلفة.. هذه الحجرة الكبيرة كان يجلس في صدرها شخص خيل إليه أول الأمر أنه يعرفه.. حيث أحس جلال العلم فيه.. والتواضع أيضاً كالذين يصورهم في خياله.. رأى فيه بشاشة المطمئنين وأكثر من هذا.. أن هذا العالم الأديب يميزه صفاء لون شعره الأبيض في صفاء الزبد كما أشار «محمد عبدالحليم عبدالله».

كان هذا العالم عند دخولهما عليه مستغرقاً في القراءة إلا أنه عندما رفع عينيه رأى في صفائهما قوة.. وأصالة.. وحناناً.. وعطفاً.. ومودة.. وأبوة.

نظر إليهما راداً السلام بدعابة خفيفة تتفق مع إطالة نظرته فيه كمن يستصغره في سنه.. ويستقصره في قامته.. هازاً رأسه على إيقاع سؤاله:

- هل أنت «محمد عبدالحليم عبدالله؟»

- نعم أنا.. وحديث التخرج من دار العلوم.

ساد الصمت لحظة.. وصار «محمد عبدالحليم عبدالله» يحدث نفسه في نفسه.. من المعقول عالم مثل هذا حفظ اسمي ولقبي؟

قاطعه هذا العالم مستمر المداعبة ليفيض بالطمأنينة عليه سائلاً:

- هل عرفت اسمي؟

ثم لحقه بالاجابة حتى لا يتوتر جو اللقاء «أنا» «إسماعيل مظهر».. أنت ستعمل معي موظفاً صغيراً هنا في المجمع اللغوي.. فهل تقبل هذا؟

وظل شارعاً وجهه وعينيه في وجهه رغم أن «محمد عبدالحليم عبدالله» هز رأسه بالموفقة في صمت فاستمر العالم الأديب «إسماعيل مظهر» في توصياته وتعليماته إليه وكأنه تسلم العمل فعلاً بعد موافقة «إسماعيل مظهر» لا موافقة «محمد عبدالحليم عبدالله» هذه التعليمات نصاً واستنتاجاً من لقائه بعد أن أشهر قلمه في اتجاهه:

- اسمع..

- نعم

- إنني أحترم الذين يبدون صغاراً ثم يكبرون

- حاضر

- حاول أن تكبر

- حاضر

- أول عيب في شبابنا أنهم يريدون أن يبدوا كباراً.. فما رأيك؟

تسلم «محمد عبدالحليم عبدالله» العمل بالمجمع موظفاً صغيراً كما ذكرنا.. لكنه لم يعد عملاً وروحاً عن هذا الرجل الذي فتح له باب الحياة.. وقرب منه أكثر وأكثر فإذا ما حدّث عن هذا الرجل الأديب العالم «إسماعيل مظهر» قال:

إنه يتكلم في كل شيء.. ويحدثك بما يعرف من أشياء لها قيمة.. وكأنه يستفهم منك.. ما شعر الصغير أمامه أنه صغير.. ما شعر الصغير أبداً أمامه بالضعة بل بالتطلع.. بالتسامي.. بمحاولة الارتقاء.. نفس الشعور الذي يخالجنا إذا نظرنا إلى كوكب متوهج

في السماء ذات ليلة.

لقد اتخذ «محمد عبدالحليم عبدالله» «إسماعيل مظهر» كأبيه.. فحينما ترك «إسماعيل مظهر» المجمع كموظف ثم عاد ثانية كعضو عامل في المجمع قابله «محمد عبدالحليم» مهللاً كالطفل الذي يرحب بعودة أبيه.. سلم عليه رافعاً يده إلى أعلى كمن يقوله له.. شد حيلك ترتفع يا «محمد عبدالحليم» ولتعلو من شأنك.. داعبه مداعبة الطفل لأبيه.. ضاحكاً من كل صدره..

فلقد تعلم «محمد عبدالحليم عبدالله» منه الكثير.. وصار هو الآخر جزءاً من عالمه

تعلم محمد عبدالحليم عبدالله: لا يتحدث إلا فيما يعرف من الأشياء القيمة.. لا التافهة.. وتظن أنه يستفهم منك أنت.. ما شعر الصغير أمامه أنه صغير وذلك يكون واضحاً أكثر إذا نزل قريته «كفر بولين» وجدته جالساً على المصابة بين أهل القرية أقاربه ومحبيه وجيرانه وسمّاره.. يتسامر معهم لابساً قفطانه البلدي ومعه عصاته لابساً طربوشه متحدثاً بلهجتهم «الكفر بولينيه» ما ظننته رأى القاهرة أو حتى زارها مرة واحدة.. إذا ما نادى أحداً ناداه بقرابته بمعنى أنه يقول مثلاً وهو يصافحه أو من بعيد «إزيك يا حسن يا ابن خالي» أو أهلاً «يا سعد يا ابن عمتي» وهكذا.. وإذا ما سلم عليه أحد قام واقفاً على الفور صغيراً كان أو كبيراً.

كل ذلك أيضاً لم يخل من إبداعاته أبداً عبقاً وعملاً.. وفعلاً وشكلاً وموضوعاً سلوكاً طيباً من عالم طيب في مبدع خلاق.. إذا ما عاش داخله جديداً لن ينساه أبداً فهو ريفي يعلم تماماً من قدم له جميلاً طيباً حُفِرَ هذا الجميل داخله لرده يوماً ما فيقول عن هذا الرجل الذي فتح له باب الحياة بكرامة: «لا زلت أذكر الرجل الذي فتح لي باب الحياة بكرامة وكرم.. وكأنه لا يزال جالساً على مكتبه بطلعته المهيبة ينظر في كتاب ضخم ولا أشعر أبداً أنه غاب عنا لست أدري لماذا؟

هل لأنني أحبه؟ هل لأن اسمه على كتب قيمة؟ لكل هذا لم يغب عنا الصديق والأب «إسماعيل مظهر» ولن يغيب ولن ينسى.

محمد فريد أبو حديد

لم يكن المكان غريباً عليه فقد دخله وهو في الخامسة عشرة من عمره وهو طالب بالمدرسة الثانوية بالقاهرة بحي عابدين، ذلك لمقابلة ابن عمه المحرر بجريدة «العلم» ولسان حال الحزب الوطني وقتذاك ومقر الجريدة.

ورغم أن المكان كان مقراً للجريدة إلا أنه لم يغرب عنه رغم صغر سنه بدهاليزه ونقوشه وسقوفه المرتفعة وردهاته وحجراته الوقورة بلافتاتها المختلفة.. والفارق بينه وبين «بيت العمدة» أو دوار عائلة «عبدالله» أو «الطحان» فلم يمر سوى العام والنصف العام على إقامته بالقاهرة.

أما زيارته الثانية وللمكان نفسه بلافتة أخرى «لجنة التأليف والترجمة والنشر» وهو في الثلاثين من عمره وبعد أن كانت له إرهاصات وتشكلت قصة «إبرسيم» والتي كتبت عام 1935. هذه الزيارة في هذه المرة كانت لمقابلة ما كان يحلم أن يقابلهم ويجالسهم «د. طه حسين» وابنا البحيرة «أحمد أمين» ابن قرية «سمخراط» مركز المحمودية ومقابلة «محمد فريد أبو حديد» ابن قرية النجيلة مركز كوم حماده. كان ذلك عام 1944 تقريباً

وهو يصعد السلم هذه المرة كان على إيقاع دقات قلبه حيث الذهاب لمقابلة البعض من قمم الفكر في مصر.

أما هذه الزيارة الثالثة للمكان نفسه فكانت لمهمة خاصة وملحة وبميعاد سابق.. فقد حمل «محمد عبدالحليم عبدالله» الأعباء الكثيرة من الذكريات اللذيذة الممتعة المفرحة المقلقة أيضاً.. ولم يات دفعه لها أي «الزيارة» مجرد فكرة عابرة.. كلا بل بعد إلحاح ولأشياء كثيرة منها ما يخص التاريخ ومحمد فريد أبو حديد».

لم يفت «محمد عبدالحليم عبدالله» وهو في طريقه إلى «أبو حديد» كعادته استحضار الزمن والسبب وعقد المقارنات بين كل الأشياء كما علمته وعودته والدته «جولفدان» فوجد المكان لم يتغير أرضاً.. سماء.. ولا حتى عبق الدهاليز والردهات والبهو القديم بالذات والحجرات.. هذه المرة تصارعت التساؤلات في نفسه لنفسه: هل أماكن «العلم والثقافة» أقدر على الاحتفاظ بالبقاء من أماكن اللهو والتسلية؟.. ثم ردد في نفسه: «لعل أهل العلم والثقافة أطول عمراً من غيرهم».

لم ينس السلم وصعوده وهو خائف يتلفت حوله وهو في طريقه لابن عمه لمقابلته عام 1928م في مقر جريدة «العلم» وأيضاً وهو في الثلاثين من عمره وهو يصعد خافق القلب لمقابلة د. طه حسين وأحمد أمين وصاحب اللقاء هذه المرة..

لكن هذه الزيارة كان يصعد بأعباء كثيرة من الذكريات الثقيلة اللذيذة.. كما يحمل هموم قريته وكل القرى وقرية النجيلة وهموم أخرى كأن هذه الزيارة في تآكل من أقدام المبدعين والعلماء إلا أن عبق المكان حرك كل كوامنه وتوهج ميوله التاريخي واستعجال اللقاء.

جلس بجوار «محمد فريد أبو حديد» «على إيقاع».

- أهلاً عبدالحليم.

هذا الترحيب وضع كل «كفر بولين» قرية «محمد عبدالحليم عبدالله» أمامه.. المصطبة.. الجرن.. الدهليز.. المندرة.. الجميزة.. الترعة.. القناعة.. الرزونة.. وكذلك قرية النجيلة قرية المضيف المرحب وعلى الفور تذكر محمد عبدالحليم عبدالله الذكريات الطفولية وكان السؤال من المضيف:

«إنك الوحيد دون بقية كتاب جيلك لا نعرف شيئاً عن أيام طفولتك.. فهل سبب ذلك أنك لا تريد؟»

وبتواضع شديد هز رأسه مبتسماً وبهدوء مجيباً:

- طفولتي ليس فيها شيء غريب

وكعادة «محمد عبدالحليم عبدالله» وما يميزه الإلحاح والنبش على أوتار أشياء يريدها هو وكيف بها يمتلك محدثه ويصل إلى أغوار ذاكرته وعمق سراديبها فقال:-

ليس الغريب أحداثاً كبيرة.. ربما كان الغريب في حياة الأديب حدثاً عادياً جداً عند معظم الناس.. مثل وفاة الأب أو الأم.. أو ارتحال أحدهما بلا وفاة.. فما رأيكم؟

وكأن «محمد عبدالحليم عبدالله» بهذه العبارة يعرف مكمنها وماذا تفجر المراد من المضيف فعلى الفور كانت «طلائع الذكريات تبدو على وجهه» بالصوت الهادىء والإشارات الرزينة وتوهج استرجاعاته واستحضاراته وبلا تحفظ قائلاً:

- كانت نشأتي الأولى في دمنهور وكانت الذكريات هنا تتراشق في عالمهما وذكرياتهما البعيدة.. ولم يجرؤ محمد عبدالحليم عبدالله أن يوقف جماح حبه وانتماءه لمحافظته وعاصمتها وكانت دهشته على إيقاع التساؤل والإجابة:

- دمنهور؟!.. إنها بلدي

- عجيب.. كان عمي رئيس نيابة هناك.. وأبي مزارعاً في بلده «المسين»

أصبح كل منهما يجتر ذكرياته الأولى وأصبح كل منهما ضيفاً على زمن مضى لمشاعر ما زالت متوهجة، وقرأ كل منها الآخر من بداية السطر الأول دون أن يدري ودون أن يعرف الآخر أين يذهب صاحبه، فقد ذهب بحساسيته التي يغلفها الهدوء وأحداثاً منذ الصغر وموطن قصته (أزهار الشوك).. فكانت عينه ترقب العلاقات الإنسانية المعقدة بين الناس.. يلعب مع هذا ويجري مع ذاك ويصف حبه لأبيه والأرض المترامية الأطراف والتي هاجر إليها.. فكانت هذه الذكريات ذكريات شخصية وعليها أيضاً تدخلت ذكريات «محمد عبدالحليم عبدالله» الشخصية.. لأسرة قريبة له هاجرت أيضاً إلى المسين وهو صغير لكنه كان قلبه يخفق عندما ذكرت دار أقاربه التي ظللها الصمت وهنا كان له قلب آخر مملوء بالحب.. لم تطمسه الأشياء مهما تعددت ولم ينسها الزمن..

ملحوظة: كان قلب «محمد فريد أبو حديد» نفس الشيء.. يحب البسطاء من الناس ويصادقهم ومن هنا كان «محمد عبدالحليم عبدالله» ابن بيئته هي عالمه.. حياته.. بداياته.. مجتمعه لم يسلخ جلده يوماً ما حتى في أصعب لحظات نشوة الذكرى ومعايشة الماضي نجده يعيش عالمه الحقيقي وهو قريته والقرى الأخرى.. حبه الأول لم ينسه ولم يتركه وبأقل هوامش الذكرى يتوهج.

ومن هنا لم يترك «محمد عبدالحليم عبدالله» الفرصة بأن يسأل محمد فريد أبو حديد:

- ماذا عن قصة «أنا الشعب»؟

وعلى الفور كانت الإجابة:

- نعم.. أنا الشعب.. نعم يا سيدي.. كلنا الشعب.. تعرف «يا عبدالحليم».. إنني أحب هذه القصة: كتبتها قبل الثورة 1951 ونشرت في ظل الثورة وقرأها الناس فأحسست أني شاركت في حركة «الضمير» العامة.. وضعت حجراً في البناء.. كنا نحلم بالتفاف الشعب حول زعيم..

ومن هنا كان «محمد عبدالحليم عبدالله» واقفاً على: أن الأديب هو ضمير الأمة.. هو الماضي والمستقبل والحاضر.. لا بد وأن يشارك في البناء.. وأن يساعد على تحقيق الأحلام.. أن يكون هو الحضارة.. وهذا هو «محمد عبدالحليم عبدالله» الباحث.. الفيلسوف.. المصلح.. الأديب.. العراف.. ومن هنا كانت مشاركته في ندوة خاصة عن تحديد النسل أو تنظيم النسل كما يسمونه الآن.. في قريته مشاركاً بها ذلك في أواخر الخمسينات أو أوائل الستينات المهم كانت هذه الندوة مع بداية هذه الدعوة.. الندوة كانت تضم طبيب المجمع - شيخ البلد وشيوخ الناحية - المأذون ما تخصه مهمة الفتوى في المنطقة - الكثير من وزارة الأوقاف والمتخصصين ومن يريد المشاركة أيضاً.. وتكلم «محمد عبدالحليم عبدالله» ببساطة الريفي الواعي الفطري الفاهم الذي لملم كل الحاضرين من قريته «كفر بولين» والناحية في خضم أفكاره وعرضه للموضوع مع وضع المقارنة بين عدد الأطفال في الأسرة الريفية وبين الأسرة والأسرة وعرض كل ما يخص ذلك من أعباء ثم عرج إلى المدينة أيضاً.. وبأسلوبه البسيط وعباراته المقنعة الواضحة كان الأثر الوحيد المتروك حتى الآن والذي ما زال محفوراً في فكر القرية وأصبح مأثوراً هي التزام أهل القرية بالتوصيات التي عرضها هو والجمل التي ألقاها مبدعنا بعضها محفوظ حتى وقتنا هذا فقد سألت البعض من بينهم

من أهل القرية المسنين عن بعض هذه العبارات فيقول «السيد جاد» بصراحة وفطرة واضحة كما سمعها منه: «اسمعوا يا أهل بلدنا كفر بولين.. لو واحد عنده فدان وزرعه ذرة وكان المحصول عشرة أرادب والبيت فيه خمس أولاد وأمهم وأبوهم ونفس الفدان عند واحد تاني مخلف عشرة أولاد والمحصول عشرة أرادب آني واحد يخلص دراه الأول؟؟».

وبعد سماع الإجابات المتناثرة على الشادر المقام خصيصاً لهذا الغرض ضحك وقال مثال تاني: «واحد عنده ولدين وواحد عنده أربع أولاد.. الجميع في سن بعض.. هنا.. وهنا كل أب معاه عشرة جنيهات من في الأبين يرجع مبسوط؟؟» وهكذا وصل بهم إلى الاقتناع وللتنظيم أو للتحديد وهكذا بعض مآثره التي حفظت وحفرت داخل القرية لبساطته واحترامه للجميع والوقوف عليهم جميعاً حالاً ومستوى.

ملحوظة: الوحيد الذي صفق له على مستوى الندوة من الفلاحين.

«التاريخ ومحمد عبد الحليم عبدالله» يعلن «محمد عبدالحليم عبدالله» صراحة أنه لم يتذكر أي كتب للتاريخ التي قراها ولم تقد على رأسه صورة ولا حفظ قلبه عبارة.. فقد تعلم وأضاف إلى عالمه هذا الأديب خاصة «تاريخياً» فقد عرف أن هناك التطور الجديد لوظيفة القصة التاريخية وكيف تطورت.. وعرف كيف يعالج موضوعاً حيوياً من خلال هذا النوع وعرف يلجأ إلى الحاضر لياخذ مادته أو يعود إلى الماضي وبنفس المأخذ فلا فرق بين الحادثة الجارية والحادثة التاريخية لأن اختيار الحادثة التاريخية يجب أن تؤكد معالجة الكاتب بالعلاقة «للفترة الحديثة التي كتبت فيها الرواية وإلا كانت جثة هامدة».

فقد وقف «محمد عبدالحليم عبدالله» وقوفاً بيناً على ما استفاده وتعلمه من مبدعنا «محمد فريد أبو حديد» وان القصة التاريخية كائن حي ولد حديثاً له شهادة الميلاد تحمل تاريخ العام واليوم هذا رأي «محمد فريد أبو حديد» صراحة.

قال مبدعنا لمحمد فريد أبو حديد أثناء هذا اللقاء في *1964*: «لقد جعلتني أحب التاريخ» صـ*82* «لقاء بين جيلين» ويقول أيضاً نفسه «محمد عبدالحليم عبدالله» ملأت أنفي روائح التاريخ في أماكن شتى من الدنيا.. ليس التاريخ الخام مثل الحديد الخارج من المنجم.. لكن هو التاريخ المصنوع الذي شكله الفنانون فجعلوا الزمن «إطاراً» والناس في قلب «الصورة» وعلقوا كل هذا على «جدار» حديث.. شممت رائحة «قصة مدينتين» «لديكنز» و«الحرب والسلام» «لتولوستوي» و«الأحمر والأسود» «لستندال» و«عذراء قريش» «لجورجي زيدان» و«على باب زويلة» «لسعيد العريان» و«رد قلبي» «ليوسف السباعي» و«والإسلام» «لعلي باكثير» و«قلعة الأبطال» «للسحار» وقصص أخرى لم أذكرها على الترتيب اندفقت عليّ كفتحة الشلال فيها روائح الأزمنة وألوان الناس والأماكن.. ونبات الأرض.

هذا واضح في رواية «الباحث عن الحقيقة» الرواية الوحيدة التاريخية «لمحمد عبدالحليم عبدالله» والتي لجأ إلى عالمها في فترة محنته والهجوم الذي قام عليه من النقاد وكادوا أن يسقطوا أعماله ذلك في أوائل الستينيات.

هذا الباحث عن الحقيقة «سلمان الفارسي» العبد الحر.. العبد السيد.. الذي عندما اشتراه أبو يعقوب بدأ يشعر بالندم وأحس.. ولسبب لا يمكن إدراك سره.. أنه إنما اشترى لنفسه سيداً.. فلم تكن نظرات هذا العبد الذي أضناه السفر والسهر والغدر والجوع كسيرة ولا ذليلة.. بل كان يرى - كأنه أحد الأحبار - في أعماق عينيه السوداوين